فن التوقيعات في الأدب العربي

(*) الأستاذ: محمد ونيس القاضي

مقدمـــــــــة:

إن الكلام الجميل تعشقه النفس، والتعبير البليغ يستولي على القلب، وأساس جماله وبلاغته حسن اختيار الكلمة ودقة تركيب الجملة حتى يناسب المقال مقامه.

ويمتاز أدبنا العربي بخصائص كثيرة، ومما لا شك فيه أن الأدب العربي يتفوق على أي أدب آخر، فهو يتمتع بأساليب بيانية متنوعة، ومن هذه الأساليب البيانية التي يتميز بها أدبنا العربي، "فن التوقيعات" فهو يعد فنا أدبيا نثريا احتل مكانة لائقة به في تاريخ الأدب العربي بين سائر فنون الأدب النثرية الأخرى.

وتقترن صيغة "التوقيع" في أذهان العامة بقصة طريفة مفادها أن أحد الخلفاء افتتح توقيعا إلى قاضيه بمدينة "قم" بقوله: "أيها القاضي بقم" ولم تستجب له السجعة إلا بعزل ذلك القاضي حين أتم توقيعه بقوله: "قد عزلناك فقم"، ولعل توارد مثل هذه القصة على الألسن سواء أصحت روايتها على صعيد الواقع أم لم تصح.

ولقد اخترنا أن يكون عنوان بحثنا موسوما بـ (فن التوقيعات في الأدب العربي)، ليكون مدخلا لدراسة هذا الفن والتعريف به، و دفعنا لاختياره أن هذا الموضوع لم يلق حظا كبيرا من عناية الباحثين، ولم توجه إليه دراسات عميقة تجلي خصائصه وتحدد ملامحه وكل ما ورد في بطون كتب الأدب جاء على شكل إشارات، الأمر الذي أبقى صورة هذا الفن غير واضحة المعالم في أذهان المثقفين [1] واتّبعنا فيه المنهج الوصفي.

مفهوم التوقيعات الأدبية:

إن فن التوقيعات الأدبية هو أحد الفنون الأدبية النثرية، عرفه أدبنا العربي منذ مطلع العهد الإسلامي، ونحن نتناول هذا الفن ليكون مفيدا ينبغي أن نشير إلى بعض معاني التوقيع في اللغة، قبل أن نتناول الدلالات الاصطلاحية فنجد أن التوقيع في اللغة له عدة معان: " فهو مأخوذ من توقيع الدبر ظهر البعير، فكان الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه... فسمي هذا توقيعا؛ لأنه تأثير في الكتاب حسا، أو في الأمر معنى، أومن الوقوع؛ لأنه سبب لوقوع

* عضو هيئة تدريس بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية –كلية الآداب –الجامعة الأسمرية الإسلامية

(1) ينظر العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ص 489، والعقد الفريد 490/4.

الأمر المذكور، أو لأنه إيقاع لذلك المكتوب في الكتاب، فتوقع كذا بمعنى إيقاعه "[1] ، والتوقيع في الكتاب " إلحاق شيء بعد الفراغ منه، وقيل: أنْ يجمل الكاتب [2]بين تضاعيف سطور الكتاب مقاصد الحاجة ويحذف الفضول، وقيل التوقيع: ما يوقع في الكتاب؛ أي كتب في أسفله إمضاء له أو إقرار به.

ونجد أن التوقيعات في الاصطلاح ،قد اكتسبت معنى يرتبط بالمعنى اللغوي، فأصبحت تستعمل لما يوقعه الكاتب على القضايا أو الطلبات المرفوعة إلى الخليفة، أو السلطان، والتوقيعات عبارات موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الوالي في أسفل الشكاوى أو المطالب أو والحاجات التي كانت ترفع إليهم بما يتضمن الرأي فيها ،وأما أصل" تسميتها بالتوقيع فأصله من التوقيع على القصص وظهورها"[3].

نشـأة فـن التوقيعـــات:

إن فن التوقيعات فنٌ قديم عرفه أدبنا العربي منذ مطلع العهد الإسلامي وهو فن أدبي نشأ في حضن الكتابة، وارتبط بها، حيث ذكر بعض الباحثين أن نشأة هذا الفن كانت بداياتها عند الفرس، " فقد اعتاد ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا بها على ما يُقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكواهم "[4] ، ففن التوقيعات لم يعرفه العرب إلا بعد اتصالهم بالفرس، وانتشار الكتابة فيهم، فقد كان الفرس قبل الإسلام يهتمون بالبلاغة والكتابة، وساعد ذلك على ازدهار فن التوقيعات وانتشاره لديهم.

وقد وصل إلى أدبنا العربي الكثير من توقيعات ملوك الفرس، ومن ذلك أن رجلا من الفرس رفع إلى " كسرى بن قباد "[5] رقعة يخبره فيها أن جماعة منهم قد فسدت نواياهم، و خبثت ضمائرهم ، وهم فلان وفلان، فوقع في أسفل كتابه " إنما أملك الأجسام لا النيات وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر" [6]، وقد جرت عادة الملوك أن يوقعوا على بعض القصص بعبارة بليغة أو حكمة حكيمة يتخيرون لها أحسن الألفاظ وأجود المعاني، وقد

---

[1] تاج العروس، مادة (وقع).

[2] لسان العرب ، (وقع).

[3] صبح الأعشى: 1/ 52.

[4] تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ص489.

[5] كسرى نوشيروان، ملك ساساز، ولد 521 م، وتوفي 579 م ،وهو ابن قياد اشتهر بعدله، بنظر الأعلام ـ للزر كلى، دار العلم للملايين ـ ص 589,588.

[6] ضحى الاسلام ، أحمد امين، ص787.

تطورفن التوقيعات في العصر العباسي وبلغ أوجه ازدهاره، فقد أنشأ له في الدولة ديوان خاص به سموه " ديوان التوقيع "[1] .

وفي عصر ما قبل الإسلام فإن فن التوقيعات الأدبية لم يكن معروفا لديهم كما في العصور اللاحقة، ويرجع السبب في ذلك هو عدم انتشار الكتابة بينهم، رغم أن أدب ما قبل الإسلام كان له عدة فنون مختلفة كالشعر، والخطابة والنثر ،وغيرها من الفنون الأدبية الأخرى، وفي عصر صدر الإسلام اكتسبت التوقيعات معنى اصطلاحيا ارتبط بالمعنى اللغوي، وفي بداية الإسلام وفي عهد الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- يرى بعض الباحثين " أن فن التوقيعات لم يكن معروفا في عهد الرسول- صلى الله عليه وسلم- ؛لأن الكتابة لم تكن شائعة بينهم، وكان عدد الذين يكتبون لا يزيد عن سبعة عشر شخصا "[2].

ونذكر بعض النماذج من التوقيعات للخلفاء الراشدين- رضي الله عنهم- في عصر صدر الإسلام فمن ذلك ما وقع به أبو بكر الصديق إلى خالد ابن الوليد- رضي الله عنهما- وقد استأذنه في ملاقاة العدو " أذن من الموت توهب لك الحياة "[3] ، ثم شاعت التوقيعات في عهد عمر وعلي وعثمان- رضي الله عنهم جميعا- وقد كان الخلفاء يوقعون بأنفسهم أو يتركون ذلك لكتابهم.

ومن توقيعات عمر بن الخطاب: أن سعداً بن أبي وقاص- رضي الله عنهما- كتب إليه من الكوفة وكان واليا عليها يستأذنه في بناء دار الإمارة، فوقّع في أسفل كتابه " ابن ما يكنك من الهواجر وأدى المطر "[4] .

ثم وقّع في كتاب عمرو بن العاص " كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك "[5] .

حيث امتازت توقيعاتهم ببلاغة الأداء والإيجاز، وموافقتها للصواب، والتوقيعات في عصر صدر الإسلام تعد قليلة خلافاً لما عليه هذا الفن في العصور الأخرى، ولعل السبب في ذلك أن فن التوقيعات لا يزال في بدايته ولم ينتشر انتشاراً واسعاً في تلك الفترة، وأيضاً لعدم انتشار الكتابة.

والتوقيعات في العصر الأموي كانت امتداداً لهذا الفن في عصر صدر الإسلام، ولم يقتصر هذا الفن على الخلفاء، فقد مارسه بعض الأمراء والوزراء وغيرهم، ووصلت إلينا نماذج كثيرة من

---

[1] ينظر تاريخ الادب العربي – لهشام ياغي وآخرين، ص195

[2] العقد الفريد، لابن عبد ربه، ص 157.

[3] الموجز في الأدب والتاريخ، حنا الفاخوري، ص 398- 397.

[4] العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ـ 4/205، 206.

[5] السابق ـ ص 206.

توقيعات خلفاء بني أمية منها توقيع معاوية بن أبي سفيان- في كتاب: " نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتّضع "[1].

أما في العصر العباسي فقد انتشر فن التوقيع انتشاراً واسعاً وتعددت أغراضه، وحل محل الخطابة في شؤون الدولة.

إن الخلفاء في العصر العباسي الأول كانوا يطلعون على ما يرد عليهم من كتب ورسائل فيوقعون عليها، وصدرت عنهم توقيعات بليغة ووصل إلينا منها قدر لا بأس به،[2] وفي العصر العباسي الثاني شاعت التوقيعات على أقلام عدد من الكتاب والوزراء المشهورين ومن ذلك ما ذكره الثعالبي " أن الصاحب بن عباد رفع إليه بعضهم رقعة يذكر فيها أن بعض أعدائه يدخل داره فيسترق السمع فوقّع فيها: " في دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان "[3].

ويقول ابن خلدون: " كان جعفر بن يحيى البرمكي يوقع القصص بين يدي الرشيد، ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها؛ للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها؛ قيل أنها كانت تباع كل قصة بدينار"[4].

و كان جعفر بن يحي البرمكي يقول لكتابه: " إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا "[5].

فقد برع العباسيون في فن التوقعات وازدادت انتشارا عندهم بظهور السفاح أبي العباس الخليفة العباسي الأول وامتازت توقيعات ملوك ووزراء الدولة العباسية بحسن البلاغة، وغزارة العلم وسعة الاطلاع، وكانت توقيعاتهم إذا وقعت نسخت وتدورست، وممن اشتهر بحسن التوقيعات الحسن بن سهل السرخسي المأمون، وهو أحد كبار القادة في عصره، لكن جعفر بن يحي تفوق بتوقيعاته القصيرة البليغة، التي كانت مثلاً يقتدي به من قبل الكتاب[6].

تطور فن التوقيعات:

لقد تطور مفهوم هذا الفن وأخذ عدة صور ودلالات، وكان الأصل فيه توقيع الخلفاء على حواشي أو ظهور الكتب أو القصص التي ترفع إليهم، يضمنونه الرأي الذي يرون أنه يجري الأمر إليه فيها، ثم

---

[1] خاص الخاص ،ص 271.

[2] ينظر :العقد الفريد ـ ص 211، 216.

[3] يتيمة الدهر ـ للثعالبي ـ 197/3.

[4] مقدمة ابن خلدون ـ ص 681.

[5] البيان والتبيين ـ 115/1.

[6] ينظر: الوزراء والكتاب، /204.

غدا التوقيع من اختصاص جميع ذوي السلطان خلفاء أو أمراء أو وزراء أو رؤساء دواوين الإنشاء، يقول صاحب صبح الأعشى: إن التوقيع أصله " من التوقيع على حواشي القصص وظهورها "[1] .

تطور فن التوقيعات الأدبية عند العرب حينما اتسعت الدولة الإسلامية، وكان الخلفاء و الأدباء يمتدحون بروعة توقيعاتهم ومن أزهى العصور التي تطورت فيه التوقيعات وازدهرت في العصر العباسي خلافاً لما كانت عليه في العصر الإسلامي، وسبب ذلك هو انتشار الكتابة، وتعدد أغراضها، واهتمام الخلفاء والوزراء وتشجيعهم للأدباء، كل ذلك كان له دور في ازدهار هذا الفن وتطوره.

فقد كان التوقيع بخط الخليفة أو السلطان، أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء...، ومن جرى مجراهم بمـــا يعتمد عليه في القضية التي رفعت القصة بسببها، ثم أطلق على كتابة الإنشاء بعامة "[2] .،فهذا النص الذي ذكره القلقشندي في إطار تعريفه لفن التوقيعات حدد الجهات التي تتولى إصدار التوقيع عبر مراحل تطور هذا الفن خلال العصور المختلفة، حيث نجد في بداية الأمر أن التوقيع كان وقفا على الخليفة نفسه يكتبه بخطه أو يكتب بإملائه، أو يلقيه إلى كاتب حصيف يفقه معناه ثم يتولى صياغته عنه وفق ما قرره الخليفة، يقول القلقشندي: " وأعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء ،فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية وفصل المظالم"[3]، ويقول ابن خلدون في مقدمته:" ومن خطط الكتابة التوقيع؛ وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها، والفصل فيها ،ملتقاه من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة "[4]

فـ" في هذه البيئة الفنية الخصبة ازدهرت التوقيعات، وأنشئ لها ديوان خاص، واسند العمل فيه إلى الأدباء والكتاب ممن استطارت شهرتهم في الأفاق وعرفوا ببلاغة القول، وشدة العارضة، وحسن التأني للأمور والمعرفة بمقاصد الكلام وتوجيه القضايا "[5].

وقد جعل لشخصية كاتب التوقيعات مميزات خاصة تميزه عن غيره منها أن يكون بليغا، وأن يكون من أرفع طبقات الناس، كما يقول ابن خلدون في ذلك " إن صاحب هذه الخطة لابد أن يتخير

---

[1] صبح الأعشى ـ للقلقشندي ـ 1/ 52.

[2] السابق ـ 1/ 52.

[3] صبح الأعشى ـ 1/ 110.

[4] مقدمة ابن خلدون ـ ص437.

[5] الخراج وصناعة الكتابة ـ ص 53، 54.

من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلو وعارضة البلاغة، فإنه معرّض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك، ومقاصد أحكامهم، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب، والتخلق، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها "[1].

وكان للتوقيعات قبول عند الكتاب وطلاب الأدب، فأقبلوا عليها ينقلونها، ويدرسونها، ويحفظونها، ويتعاملون بها.

وقد كان لفن التوقيعات دورا في توجيه سياسة الدولة وحل كثير من المشكلات؛ لأن الكثير من التوقيعات وخاصة في العهود العباسية كانت تضم بالإضافة إلى قيمتها الفنية معارف إدارية، ودلالات تتصل بالقضاء والفقه، فمن التوقيعات التي كانت تشتمل على أحكام قضائية تستند هذه الأحكام إلى قواعد فقهية و شرعية، ومنها على سبيل المثال: توقيع للفضل بن سهل في قصة رجل نقب بيت مال المسلمين: " يدرأ عنه الحد إذا كان له فيه سهم "[2] ، بل إن القرارات القضائية والإدارية تحمل اسم التوقيع، وأصبحت تحفظ في دواوين خاصة لتكون وثائق تحمي حقوق الناس ممن تخاصموا حولها، فقد حكي أن أبا الحسن بن الفرات جلس يوما للمظالم في سنة ثمان وتسعين ومائتين، فتقدم إليه خصمان في دكاكين بالكرخ، وتأملهما فقال لأحدهما: أرفعت إلي قصة في سنة اثنتين وثمانين في هذه الدكاكين؟ ثم رجع فقال له: سنك تصغر عن هذا، فقال: ذاك أبي، فقال: نعم، قد كان رفع قصته فوقعنا له فيها، ثم وقع بإخراج القصص والتوقيعات في سنة اثنتين وثمانين من الديوان، فقال للخصمين: كونا هاهنا، فقال بعض من حضر المجلس، فلما خرجت من عند الوزير أبي الحسن سمعت أحدهما يدعو له، فقلت له ما شأنك؟ فقال: لما سمع خصمي بهذا فرّ، وعلم أن التوقيع كان بتسليم الدكاكين إلى أبي[3] .

إن بعض التوقيعات كان ميدانا للإشارات في العقائد والملل ذات دلالات غنية وعميقة، وذلك كتوقيع الصّاحب بن عباد إلى أبي الحسن الشقيقي البلخي " من نظر لدينه نظرنا لدنياه، فإن آثرت العدل والتوحيد بسطنا لك الفضل والتمهيد، وإن أقمت على الجبر، فليس لكسرك من جبر" [4] ، ففي توقيع الصاحب بن عباد إشارة إلى عقيدة المعتزلة في العدل والتوحيد

---

[1] مقدمة ابن خلدون، ص 681.

[2] ـ العقد الفريد: 220/4.

[3] ـ ينظر الوزراء والكتاب: ص 161.

[4] يتيمة الدهر :197/3.

وإلى عقيدة الجبرية، ومن التوقيعات التي تتصل بالمعارف الفقهية توقيع للمهدي في قصة رجل من الغارمين: " خذ من بيت مال المسلمين ما تقضي به دينك وتقر به عينك "[1].

إن فن التوقيعات تطور من عصر إلى آخر و اكتسب معان أدبية وبلاغية، واهتم كثير من الكتاب وخاصة في العصر العباسي بهذا الفن، وتوسعوا فيه وجعلوا له صفات ومقاييس ودواوين خاصة به حيث يتجلى بوضوح أن هذا الفن فرع من فروع الكتابة الديوانية، والكتابة الديوانية هي الكتابة الرسمية التي تصدر عن دواوين الخلفاء والأمراء تحمل آراءهم وقراراتهم في تصريف شؤون الدولة، و ما يؤكد من انتماء فن التوقيعات إلى الكتابة الديوانية، هو إيجاد ديوان خاص باسم " ديوان التوقيع " في عهد العباسيين[2] ،يضاف إلى ذلك تخصيص قلم لهذا النوع من الكتابة، حيث يقول القلقشندي في حديثه عن أنواع التوقيعات: "... القلم الرابع... قلم التوقيع، بإضافة قلم إلى التوقيع، سمي بذلك؛ لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهور القصص..." [3]

وأصبح للتوقيعات صور منها: قد يكون آية قرآنية مثل ما وقع به عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوجّ أعناقهم (فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون)[4] (سورة الشعراء ،الآية 216) ومن التوقيعات التي تضمنت آية قرآنية توقيع لقتيبة بن مسلم الباهلي، كتب إلى سليمـــــان بن عبد الملك يهدده بالخلع، فوقع في كتابه: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[5] (سورة القصص ،الآية 83) ، ووقع إليه أيضا جواب وعيده له: (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا [6] (سورة آل عمران ،الآية :120)

ومن التوقيعات التي تجلت في آية من القرآن الكريم توقيع لأبي العباس السفاح إلى عامل تظلم منه :(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)[7] (سورة الكهف، الآية:51)، ومن ذلك توقيع لجعفر بن يحيى اليرمكي في قصة محبوس: (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)[8] (سورة الرعد، الآية:38)

---

[1] العقد الفريد: 213/4

[2] ينظر: دائرة المعارف الإسلامية: 25/6.

[3] صبح الأعشى: 100/3.

[4] أدب الخلفاء الراشدين: ص: 220.

[5] العقد الفريد: 4/ 208.

[6] السابق100/3

[7] السابق: 211/4.

[8] السابق: 4/ 219.

وقد يكون التوقيع بيتا أو أكثر من بيت من الشعر ومنها: " كتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق، وما يقاسيه منهم ويستأذنه في قتل أشرافهم، فوقع له: (إن من حسن السائس أن يأتلف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون)، حيث كتب إليه أبياتا من الشعر يقول فيها:

كيف يرجون سقاطي بعدما ❖❖❖ شمل الرأس مشيب و صلع[1]

ومن التوقيعات التي استخدم فيها بيت من الشعر أو شطر منه في صيغة التوقيع ،فمن ذلك ما وقع به سليمان بن عبد الملك لقتيبة بن مسلم الباهلي بعد أن بلغه تهديده له بالخلع : "زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا"[2] ، وهو شطر من بيت لجرير يخاطب به الفرزدق متهكما :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ❖❖❖ أبشر بطول سلامة يا مربع

ومثله توقيع لزياد بن أبيه في قصة متنصح: " مهلا فقد أبلغت إسماعي "[3] ، وهو عجز بيت لأبي قيس بن الأسلت وتمامه:

قالت ولم تقصد لقيل الخنا ❖❖❖ مهلا فقد أبلغت أسماعي.

ومن التوقيعات التي استعارت مثلا من الأمثال المشهورة، ما وقع به علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه- إلى طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه- " في بيته يؤتى الحكم "[4]

الخصائص الفنية لفنّ التوقيعات:

من مظاهر الخصائص الفنية في التوقيعات قصر الجملة وهو الذي يميز هذا الفن؛ لأن السمة الفنية الأولى لهذا الفن هي التزام أصحابه "الإيجاز" لأن الإيجاز من الأمور المستجدة في الأدب العربي .

إن التوقيعات تجمع بين الإيجاز وسلامة العبارة ودقة الفكرة وقوتها دون تكلف، وتتسم التوقيعات ببعض المحسنات البديعية كالجناس والمطابقة، كما تعتمد على الاقتباس والإيجاز، وهذا الأخير من شروط التوقيعات.

لأن الإيجاز له مزايا كثيرة تحدث عنها الأدباء والبلغاء أحاديث كثيرة وعن إيثار العرب له في تخاطبهم وخطبهم وفي كتاباتهم وقد أفرد له البلاغيون حيزا في بحوثهم ودراساتهم، وفي معرض حديث صاحب العقد الفريد عن فن التوقيع فنجده قد ربط بين هذا الفن والإيجاز وقدّم لبحثه بكلام مطول عن فضل الإيجاز جاء فيه " ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في التوقيعات والفصول

---

[1] ديوان سويد بن كاهل، تح: شاكر العاشور، نشر وزارة الإعلام العراقية- بغداد، 1972م، ص: 232.

[2] العقد الفريد: 4/ 208

[3] السابق: 4/ 217.

[4] مجمع الأمثال، 2/ 44.

والصدور وأدوات الكتابة، وأخبار الكتاب وفضل الإيجاز، إذ كان أشرف الكلام كله حسنا، وأرفعه قدرا وأعظمه من القلوب موقعا، وأقله على اللسان عملا، ما دلّ بعضه على بعض، وكفى قليله عن كثيره، وشهد ظاهره على باطنه، وذلك أن تقل حروفه وتكثر معانيه "[1] فالإيجاز هو السمة المميزة للتوقيع، وهذا ما جعل التوقيع يعرض دائماً على قدر قليل من الكلام، وقد كان في أول أمره يصدر في إطار من العفوية لا تكلف معه، ثم غدا طابع التكلف يسمه بميسمه بعد ذلك، وفي جميع الحالات كانت التوقيعات شديدة الإيجاز واضحة الدلالة معبرة عن الغرض المطلوب والمراد تبليغه في أوجز عبارة، بل ربما اقتصر التوقيع أحياناً، إمعاناً في الإيجاز، على كلمتين فقط ومن ذلك توقيع للفضل بن سهل إلى صاحبه يقول فيه: " تمهل وتسهل " [2] ،وتوقيع آخر له إلى صاحب الشرطة يقول فيه: " ترفق توفق "[3]

وهناك بعض التوقيعات اقتصرت على كلمة واحدة وذلك كما تشير إليه القصة التي وقعت للسلطان محمود الغزنوي حين بعث للخليفة في بغداد يطلب منه أن يذكر اسمه معه في الخطبة وأن ينقش اسمه على النقود، فلما امتنع الخليفة على الاستجابة له أرسل إليه، جاء فيه " لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت، " فكان رد الخليفة وجوابه إليه كتابا ليس فيه إلا البسملة وبعدها ألف لام ميم ثم الصلاة على النبي والحمد لله، فلما اطلع عليه السلطان محمود لم يفهم مغزاه واستغلق عليه وعلى حاشيته فاستنجد بكبار العلماء في عهده فقيل له: إنكم بعثتم تتهددون الخليفة بالفيلة فنعث إليكم هذا الكتاب وفيه " ألف لام ميم " إشارة إلى قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)[4] ، فارتاع السلطان وعدل عما كان يطالب به.[5]،والإيجاز أن تكون ألفاظه قليلة ذات معان غزيرة، وقد بالغ بعض الكتاب و الأدباء في الإيجاز من أن بعضهم اقتصر في بعض توقيعاته على حرف أو نقطة، وذكر أن الصاحب بن العباد رفع إليه رجلا قصته يستوهب منه شيئا وكتب في آخر قصته: " فعل إن شاء الله "، فلما قرأها الصاحب زاد " ألفاً " أمام فعل فصارت " افعل إن شاء الله "[6]

---

[1] العقد الفريد: 4/ 155.

[2] السابق: 4/ 220.

[3] السابق: 4/ 220.

[4] سورة الفيل: الآية 1.

[5] ينظر: يتيمة الدهر: 195/3.

[6] ينظر: العقد الفريد، 220/4.

ومن أبـــــرز ضروب الصنعة التي دخلت فن التوقيع فهي السجع والجناس والطباق والمقابلة ومن ذلك توقيع لجعفر بن يحيى لبعض العمال: " قد كثر شاكوك وقل شاكروك، فـــــــإما عدلت وإما اعتزلت " [1] ، وفي توقيع للرشيد في قصة رجل من البرامكة: " أنبتته الطاعة وحصدته المعصية "[2] .

[1] ينظر: العقد الفريد ، 219/4.

[2] السابق: 213/4.

المصادر و المراجع

1. القرآن الكريم ـ برواية حفص.
2. البيان والتبيين ـ لأبي عمر بن بحر الجاحظ ـ تح:عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي بمصر ـ ط:2 ـ 1380هـ ـ 1960م.
3. أدب الخلفاء الراشدين ، د/ جابر قميحه، دار الكتب الإسلامية،د ت
4. تاج العروس ـ لمحمد مرتضى الزبيدي .
5. تاريخ الأدب العربي،د/هشام ياغي وآخرين، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط:1/2010م
6. تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول ـ لشوقي ضيف ـ دار المعارف ـ ط:13ـ د ت.
7. الخراج وصناعة الكتابة ـ لقدامة بن جعفر ـ تح: محمد حسين الزبيدي ـ دار الرشيد للنشر ـ بغداد ـ 1981 م.
8. خاص الخاص لأبي منصور عبد الملك الثعالبي،تح:صادق النقوي ،ط:1.1984م
9. دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة العربية.
10. صبح الأعشى ـ لأحمد بن علي القلقشندي ـ وزارة الإرشاد القومي ـالقاهرة ـ مصر ـ 1963م
11. ضحى الإسلام، أحمد أمين،مكتبة نهضة مصر ـالقاهرة ،ط:1 ، 1961م
12. العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ1968م.
13. لسان العرب ـ لابن منظور الأفريقي ـ دار المعارف المصرية ـ 1973 م .
14. مجمع الأمتال ،لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني،تح :محمد إبراهيم، القاهره ، ط:1، 1979م
15. مقدمة بن خلدون ـ تح:علي عبد الواحد ـ دار النهضة ـ مصر ـ ط:2 ـ 1981 م.
16. الموجز في الأدب العربي وتاريخه، حنا الفاخوري دت /1383هـ
17. الوزراء والكتاب أو" تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء " ـ لأبي الحسن الهلال بن الحسن الصابي ـ تح:عبد الستار أحمد فراج ـ القاهرة ـ مصر ـ ت ط :1978 م.
18. يتيمة الدهر ـ لأبي منصور الثعالبي ـ تح:محمد محي الدين ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ـ ط:2 ـ 1392 هـ.